

خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِ

أَسْتَادُ فَنِّ الْفِئْدَاءِ

خرج نَفَرٌ من القرشيين. يُغْذُونَ الخُطَى. ميممين وجوههم
شَطْرَ دارِ «خَبَابٍ» ليتسلموا منه سيوفهم التي تعاقَدُوا معه على
صنعها..

وقد كان «خَبَابٌ» سَيَّافًا، يصنع السيوف ويبيعها لأهل مكة،
ويُرْسِلُ بها إلى الأسواق..

وعلى غير عادة «خَبَابٍ» الذي لا يكاد يُفارق داره وعمله، لم
يجده ذلك النفر من قریش فجلسوا ينتظرونه..

وبعد حين طويل جاء «خَبَابٌ» على وجهه علامة استفهام
مضيئة، وفي عينيه دموعٌ مغتبطة.. وحيًا ضيوفه وجلس...

وسألوهُ عَجَلِينَ: هل أتممتُ صنعَ السيوفِ يا خَبَّابُ؟؟
وجفَّتْ دموعُ خَبَّابٍ، وحل مكانها في عينيه سرورٌ متألّق، وقال
وكأنه يُناجِي نفسه: إن أمره لَعَجَبٌ..

وعاد القومُ يسألونه: أيُّ أمرٍ، يارجلُ..؟؟ نسألك عن سيوفنا،
هل أتممتَ صنْعَها..؟؟

ويستوعبهم «خَبَّابٌ» بنظراته الشاردة الحاملة ويقول:

- هل رأيتموه..؟ وهل سمعتم كلامه..؟؟

وينظر بعضهم في دهشٍ وعَجَبٍ..

ويعود أحدهم فيسأله في خُبْثٍ:

- هل رأيته أنت يا خَبَّابُ..؟؟

ويسخر «خَبَّابٌ» من مكر صاحبه، فيردّ عليه السؤال قائلاً:

- من تعنى..؟؟

ويجب الرجل في غيظٍ: أعنى هذا الذي تعنيه..؟؟

ويجب «خَبَّابٌ» بعد إذ أَرَاهُم أنه أبعد منالاً من أن يُستدرَجَ،
وأنه إن اعترف بإيمانه الآن أمامهم، فليس لأنهم خدعوه عن
نفسه، واستدرجوا لسانه، بل لأنه رأى الحق وعانقَهُ، وقرر أن

يَصْدَعُ بِهِ وَيَجْهَرُ..

يُجِيبُهُمْ قَائِلًا، وَهُوَ هَائِمٌ فِي نَشْوَتِهِ وَغَبْطَةِ رُوحِهِ:
- أَجَلٌ.. رَأَيْتَهُ، وَسَمِعْتَهُ.. رَأَيْتُ الْحَقَّ يَتَفَجَّرُ مِنْ جَوَانِبِهِ،
وَالنُّورُ يَتَلَأَلُ بَيْنَ ثَنَائِيَاهُ..!!

وَبَدَأَ عَمَلَاؤُهُ الْقَرَشِيُّونَ يَفْهَمُونَ. فَصَاحَ بِهِ أَحَدُهُمْ:
- مَنْ هَذَا الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ يَا عَبْدُ أُمِّ أُنْمَارٍ..؟؟
وَأَجَابَ «خَبَّابٌ» فِي هَدْوٍ الْقَدِّيسِينَ:
- وَمَنْ سِوَاهُ، يَا أَخَا الْعَرَبِ.. مَنْ سِوَاهُ فِي قَوْمِكَ، يَتَفَجَّرُ مِنْ
جَوَانِبِهِ الْحَقِّ، وَيَخْرُجُ النُّورُ مِنْ بَيْنِ ثَنَائِيَاهُ..!!
وَصَاحَ آخَرُ، وَقَدْ هَبَّ مَذْعُورًا:
- أَرَأَيْكَ تَعْنَى مُحَمَّدًا...

وَهَزَّ «خَبَّابٌ» رَأْسَهُ الْمَفْعَمَ بِالْغَبْطَةِ، وَقَالَ:
- نَعَمْ، إِنَّهُ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْنَا، لِيُخْرِجَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ...

وَلَا يَدْرِي «خَبَّابٌ» مَاذَا قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَلَا مَاذَا قِيلَ
لَهُ.. كُلُّ مَا يَذْكُرُهُ أَنَّهُ أَفَاقَ مِنْ غَيُوبَتِهِ بَعْدَ سَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ لِيرَى

زواره قد انفُضُوا.. وجسمه وعظامه تُعَانِي رُضُوضًا وآلَمًا، ودمه
النازف يُضْمَخُ ثوبه وجسده..!!

وحدَّقَتْ عيناه الواسعتان فيما حوله.. وكان المكان أضيق من
أن يتسع لنظراتها النافذة، فتحامل على آلامه، ونهض شَطْرَ
الفضاء، وأمام باب داره وقف متوكئًا على جدارها، وانطلقت
عيناه الذكيتان في رحلة طويلة تُحدِّقَان في الأفق، وتدوران ذات
اليمين وذات الشمال.. إنها لا تتفان عند الأبعاد المألوفة للناس..
إنهما تبحثن عن البعد المفقود..

أجل.. تبحثن عن البعد المفقود في حياته، وفي حياة الناس
الذين معه في مكة، والناس في كل مكان وفي كل زمان..

تُرى، هل يكون الحديث الذي يسمعه من «محمد» عليه
الصلاة والسلام اليوم، هو النور الذي يهدي إلى ذلك البعد
المفقود في حياة البشر كافة..؟؟

واستغرق «خَبَاب» في تأملات سامية، وتفكير عميق.. ثم عاد
إلى داخل داره.. عاد يُضَمِّد جراح جسده، وهَيْئُهُ لاستقبال
تعذيب جديد، وآلام جديدة..!!

ومن ذلك اليوم أخذ «خَبَاب» مكانه العالى بين المعذَّبين

والمضطهدين.. أخذ مكانه العالى بين الذين وقفوا - برغم فقرهم، وضعفهم - يواجهون كبرياء قريش وعُنفها وجُنُونها...

أخذ مكانه العالى بين الذين غرسوا فى قلوبهم سارية الراية التى أخذت تخفق فى الأفق الرحيب ناعيةً عصرَ الوثنية، والقيصرية.. مُبشرةً بعالم الله الذى يعبدُه الناس وحده مخلصين له الدِّين.. ومُبشرةً بأيام المستضعفين والكادحين، الذين سيقفون تحت ظل هذه الراية سَوَاسِيَةٍ مع أولئك الذين استغلّوهم من قبل، وأذاقوهم الحرمان والعذاب..

وفى استبسال عظيم، حمل خَبَّابٌ تبعاته كرائد...

يقول الشَّعْبِي:

«لقد صبر «خَبَّابٌ»، ولم تَلِنْ له بين أيدي الكفار قناة، فجعلوا يلصقون ظهره العارى بالرَّصْف^(١) حتى ذهب لحمه»!!

أَجَلٌ.. كان حظ «خَبَّابٍ» من العذاب كبيراً، ولكن مقاومته وصبره كانا أكبر من العذاب..

لقد حَوَّلَ كفار قريش جميع الحديد الذى كان بمنزل «خَبَّابٍ» والذى كان يصنع منه السيوف.. حَوَّلُوهُ كله إلى قيود وسلاسل،

(١) أى الحجارة المحماة.

كان يُحْمَى عليها في النار حتى تستعر وتتوهج، ثم يُطَوَّق بها جسده ويداها وقدماه..

ولقد ذهب يوماً مع بعض رفاقه المضطهدين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا جَزَعَيْن من التضحية، بل راجين العافية، فقالوا: «يا رسول الله.. أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا..؟؟» أى تسأل الله لنا النصر والعافية..

وَلَنَدَعُ «خَبَابًا» يروى لنا النبا بكلماته:
«شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُتَوَسِّدٌ بِبُرْدٍ لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقَلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا..؟؟»

«فجلس صلى الله عليه وسلم. وقد احمرَّ وجهه وقال:
«قد كان مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ الرَّجُلُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُجَاءُ بِالْمَنْشَارِ، فَيَجْعَلُ فَوْقَ رَأْسِهِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ..!!»

«وَيُعْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ..!!»

«وَلَيَتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ «صَنْعَاءَ» إِلَى «حَضْرَمَوْتٍ» لَا يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

والذئبَ على غَنَمِهِ. ولكنكم تَعْجَلُونَ...!!

سمع «خَبَاب» ورفاقه هذه الكلمات. فازداد إيمانهم وإصرارهم وقرَّروا أن يُرى كل منهم ربَّه ورسوله ما يُجِبَّان من تصميم، وصبر، وتضحية.

وخاض «خَبَاب» معركة الهول صابراً، صامداً، مُحْتَسِباً... واستنجد القرشيون بـ «أم أُمَار» سيدة خَبَاب التي كان عبداً لها قبل أن تُعْتِقَهُ. فأقبلت واشتركت في حملة تعذيبه..

وكانت تأخذ الحديد المحمى الملتهب. وتضعه فوق رأسه ونافوخه، وخَبَاب يتلوى من الألم. لكنه يكظم أنفاسه. حتى لا تخرج منه زفرة تُرْضِي غرور جلاديه..!!

ومرَّ به رسول الله صلى عليه وسلم يوماً. والحديد المحمى فوق رأسه يُلْهَبُهُ ويشويهه. فطار قلبه رحمة وحناناً وأسى، ولكن ماذا يملك عليه الصلاة والسلام يومها لخَبَاب..؟؟

لا شيء.. إلا أن يُثَبِّتَهُ ويدعو له..

هنالك رفع الرسول صلى الله عليه وسلم كفيه المبسوطتين إلى السماء، وقال:

«اللهم انصُرْ خَبَاباً»..

ويشاء الله ألاّ تمضى سوى أيام قليلة حتى ينزل «بأم أنمار»
قصاص عاجل. كأنما جعله القدر نذيراً لها ولغيرها من الجلادين.
ذلك أنها أصيبت بِسُعار عَصيب وغريب جعلها - كما يقول
المؤرخون - تعوى مثل الكلاب..!!

وقيل لها يومئذ: لا علاج لها سوى أن يُكوى رأسها بالنار..!!

وهكذا شهد رأسها العنيد سطوة الحديد المحمى يُصَبِّحه
وَيَمْسِيهِ..!!



كانت قريش تقاوم الإيمان بالعذاب.. وكان المؤمنون يقاومون
العذاب بالتضحية.. وكان «خَبَّاب» واحداً من أولئك الذين
اصطفتهم المقادير لتجعل منهم أساتذة في فن التضحية والفداء..
ومضى «خَبَّاب» ينفق وقته وحياته في خدمة الدين الذى
خفقت أعلامه...

ولم يكتف - رضى الله عنه - في أيام الدعوة الأولى بالعبادة
والصلاة، بل استثمر قدرته على التعليم، فكان يغشى بيوت بعض
إخوانه من المؤمنين الذين يكتمون إسلامهم خوفاً من بطش
قريش. فيقرأ معهم القرآن ويُعلمهم إياه...

ولقد نبغ في دراسة القرآن وهو يتنزل آية، آية.. وسورة، سورة حتى إن «عبد الله بن مسعود»، وهو الذى قال عنه رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «من أراد أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزل، فليقرأه بقراءة ابن أُم عَبْدٍ...»

نقول:

حتى «عبد الله بن مسعود» كان يعتبر «خَبَابًا» مَرَجِعًا فيما يتصل بالقرآن حفظًا ودراسة..

وهو الذى كان يدرس القرآن لـ «فاطمة بنت الخطاب» وزوجها «سعيد بن زيد» عندما فاجأهم «عمر بن الخطاب» متقلدًا سيفه الذى خرج به ليصفى حسابه مع الإسلام ورسوله، لكنه لم يكذب يتلو القرآن المسطور في الصحيفة التى كان يُعَلِّمُ منها «خَبَابًا». حتى صاح صيحته المباركة:

«دُلُونِي عَلَى مُحَمَّدٍ...!!»

وسمع «خَبَاب» كلمات «عمر» هذه، فخرج من مَحَبَّتِهِ الذى كان قد تَوَارَى فيه. وصاح:

«يا عمر...»

والله إني لأرجو أن يكون الله قد خَصَّك بدعوة نبيه

صلى الله عليه وسلم، فأني سمعته بالأمس يقول:
«اللهم أئد الإسلام بأحبَّ الرجلين إليك.. أبى الحكم
ابن هشام وعمر بن الخطاب»..

وسأله عمر من فوره: وأين أجد الرسول الآن يا خباب؟؟
وأجاب خباب:

«عند الصفا، في دار الأرقم بن أبى الأرقم»..

ومضى «عمر» إلى حظوظه الوافية، ومصيره العظيم...!!

* * *

شهد «خبَّاب بن الأَرْت» جميع المشاهد والغزوات مع رسول
الله، وعاش عمره كله حفيظاً على إيمانه وبقينه...

وعندما فاض بيت مال المسلمين بالمال أيام «عمر»،
و«عثمان»، رضى الله عنهما، كان «خبَّاب» صاحب راتب كبير
بوصفه من المهاجرين السابقين إلى الإسلام..

وقد أتاح هذا الدخل الوفير لخبَّاب أن يبتنى داراً له بالكوفة،
وكان يضع أمواله في مكاناً ما من الدار يعرفه أصحابه ورؤَّاده...
وكل من وقعت به حاجة، يذهب فيأخذ من المال حاجته...
ومع هذا، فقد كان «خبَّاب» لا يَرَقاً له جفن، ولا تحجُّف له

دمعة كلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين بذلوا حياتهم لله، ثم طفروا بقلائه قبل أن تُفْتَحَ الدنيا على المسلمين، وتكثر في أيديهم الأموال.

اسمعه وهو يتحدث إلى عُوَّادِهِ الذين ذهبوا يعودونه وهو رضى الله عنه في مرض موته.

قالوا له:

- أَبِشْرِيَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَإِنَّكَ مُلَاقِي إِخْوَانِكَ غَدًا...

فأجابهم وهو يبيكى:

«أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بِي جَزَعٌ... وَلَكِنْكُمْ ذَكَّرْتُمُونِي أَقْوَامًا وَإِخْوَانًا، مَضَوْا بِأَجُورِهِمْ كُلِّهَا لَمْ يَنَالُوا مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا..

«وَأَنَا بَقِينَا بَعْدَهُمْ حَتَّى نَلْنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا لَمْ نَجِدْ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ»...

وأشار إلى داره المتواضعة التي بناها.

ثم أشار مرة أخرى إلى المكان الذى فيه أمواله وقال:

«وَاللَّهِ مَا شَدَّدْتُ عَلَيْهَا مِنْ خِيْطٍ. وَلَا مَنَعْتُهَا عَنْ

سَائِلٍ»!..

ثم التفت إلى كفيه الذى كان قد أُعِدَّ له. وكان يراه ترفاً وإسرافاً وقال ودموعه تسيل:

«انظروا.. هذا كفى..»

لكنَّ «حمزة» عمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوجَد له كفن يوم استشهد إلا بُرْدَةٌ ملحاء... إذا جُعِلت على رأسه قَلَصَتْ عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه...!!

* * *

ومات «خبَّاب» فى السنة السابعة والثلاثين للهجرة..

مات أستاذ صناعة السيوف فى الجاهلية..

وأستاذ صناعة التضحية والفداء فى الإسلام...!!

مات الرجل الذى كان أحد الجماعة الذين نزل القرآن يدافع عنهم. ويحييهم عندما طلب بعض السادة من قريش أن يجعل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، وللفقراء من أمثال «خبَّاب» و «صهيب»، و «بلال» يوماً آخر.

فإذا القرآن العظيم يَحْتَضِنُ رجال الله هؤلاء فى تمجيد لهم وتكريم، وَتَهْلُ آياته قائلة للرسول الكريم:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ،
وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ
الظَّالِمِينَ. وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا: أَهَؤُلَاءِ
مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ.
وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا، فَقُلْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ،
كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

وهكذا، لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يراهم بعد نزول
هذه الآيات حتى يبالغ في إكرامهم فيفرش لهم رداءه، ويربّت على
أكتافهم، ويقول لهم:

«أَهْلًا بِمَنْ أَوْصَانِي بِهِمْ رَبِّي»..

أَجَلٌ.. مات واحد من الأبناء البرّة لأيام الوحي، وجيل
التضحية...

ولعلّ خير ما نوّده به. كلمات الإمام على كرم الله وجهه حين
كان عائداً من معركة صفين، ف وقعت عيناه على قبر غُض رطيب،
فسأل: قبرٌ من هذا...؟

فأجابوه: إنه قبر خيَّاب..

فتملَّاه خاشعًا، آسيًا، وقال:

رَحِمَ اللهُ خيَّابًا..

لقد أسلم راغبًا..

وهاجر طائعًا..

وعاش مُجَاهِدًا..